بالامر كله الى رومية الى مجلس الشيوخ فعمل الوالي كذلك ٣ لذلك نحن مجلس الشيوخ على اسرائيل وأصدر أمرا أنه ينهى ويتوعد بالموت كل أحد يدعو يسوع الناصري نبي اليهود إلهاً أو ابن الله ٤ فعلق هذا الامر في الهيكل منقوشاً على النحاس» الخ

خطبة اسماعيل بك غصبرنسكي (*)

تلاها باللغة التركية في ردهة فندق الكونتنتال بالقاهرة على نحو ثلاث مئة رجل من جميع الطبقات المتعلمة (ماعدا الامراء) وقرأ ترجمتها بالعربية الشيخ عبد الوهاب النجار :

شيء من أحوال المسلمين في البلاد الروسية

نشأت لمسلمي روسيا في الأزمان السالفة دولتان كبيرتان . احداهما دولة « آلتون أوردو » وكانت عاصمتها مدينة « سراي » قرب بحر قزوين والاخرى الدولة التيمورية . ولما سقطت هاتان الدولتان الكبيرتان وقامت على أنقاضها خانات (امارات) صغيرة متعددة وهي امارة سيبيريا وامارة قزان وامارة استراخان وامارة قريم وامارات القاقاس نشأت في آسيا الوسطى امارات بخارى وخيوا وخوقند وعدة جمهوريات صغيرة — اذا صح هذا التعبير — في قحوم الدولة الايرانية الشمالية .

ثم دار الزمان دورته وحمّ لامارتي بخارى وخيوا أن تصيرا داخل حدود الممالك الروسية وتدخلا تحت حمايتها . وأما بقية الامارات فقد استولت عليها الروس استيلاء كاملا وصارت الآن ولايات روسية صرفة

أول الامارات سقوطاً هي امارة قزان وسيبيريا وأما الجمهوريات التركانية فلم تخضعها الروس الا في العهد الاخير

(*) راجع باب الاخبار من هذا الجزء

نزل معظم مسلمي روسيا في آسيا وفي القافقاس وقسم عظيم منهم يقطنون الولايات الداخلية والشرقية من أوربا الروسية وقليل في شبه جزيرة قريم

وعدد المسلمين الساكنين في القافقاس الشرقية وداغستان وفي تركستان تسعون في المائة بالنسبة لغيرهم من الشعوب هناك . وأما في سيبريا فهم الاقلون. والساكنون منهم في الولايات الشرقية من أوربا الروسية مختلطون بالروس وسائر الاجناس . وهم الاكثرون في ولاية أورنبرغ اذ هم هناك مجموعون في المائة بالنسبة لغيرهم.

وأما عدد مجموعهم فهو بناهز — بحسب احصاء سنة ١٨٩٧ — سبعة عشر مليون نسمة . واذا ضممنا اليهم أهل بخارى وخيوا جاوز عددهم ٢٠ مليوناً .

ولا ينبغي أن يفوتنا العشرة الملايين من الترك الساكنين في تركستان الصينية (كشغر) الذين تجمعهم ومسلمي روسيا أواصر اللغة والآداب وبذلك تألف هناك « مجتمع جنسي » مؤلف من ثلاثين مليون نسمة .

تسعة وعشرون مليوناً من هؤلاء سبعون ومليون واحد شيعيون . وأما من حيث الجنسية واللغة فكلهم ترك سوى ثمانمائة ألف من قبائل الشراكسة القاطنين في جبال القافقاس وهم مع ذلك الملمام باللغة التركية .

يشتغل مسلمو روسيا بالزراعة وتربية المواشي وبالتجارة بحسب ما تسمح لهم مواطنهم . وكانت لهم في سالف الايام صناعات تذكر . ولكنها أخذت تسقط رويداً رويداً من مكانتها الاولى بمزاحمة مصنوعات المعامل الاوروبية الحديثة كما هي الحال في الأقطار الاسلامية قاطبة . والقريميون منهم معروفون بجهد البساتين وانماء الفواكه المختلفة الطيبة

والقرقاسيون أو القافقاسيون يشتغلون في الغالب بتربية دود القز وصنع البسط والطنافس الجيدة . وقد انتشرت بينهم في العهد الأخير زراعة القطن انتشاراً عظيماً .

وأما التركستانيون فيقومون على تربية دود القز وانماء الفواكه وزراعة القطن .

والجهات الشمالية من آسيا الوسطى عبارة عن القفار والاراضي القاحلة وينذر فيها ماء العنصب السائغ وتتقلب في ارجائها قبائل رحالة بمواشيها وانعامها .

في ولايات أوربا الروسية والقوقاس أربع مشيخات اسلامية . ثلاث منها

للسنيين وواحدة للشيعة . وفي كل مشيخة مفت (أو شيخ اسلام) وثلاثة قضاة أو أعضاء . وتنظر هذه المشيخات في الامور الدينية البحتة كالنكاح والطلاق والمواريث والنسب وتقسيم التركات وتوزع السجلات على أئمة المساجد كي يثبتوا فيها المواليد والوفيات وعدد الطلاق والنكاح وما اليها مما يقع في أحيائهم .

وتقسم التركات الاسلامية في روسيا على وفق الشريعة الاسلامية . وكذلك الوصايا الاسلامية لا يمسها القانون الروسي بسوء .

في كل قرية اسلامية — في أوربا الروسية وفي القريم — مسجد وكتاب . وأما القرى الكبرى ففيها عدة مساجد وعدة كتاتيب

وفي أوربا الروسية والقوقاس مسجد وثمانية آلاف كتاب وما ينيف على مائة مدرسة دينية وأكثر مسلمي روسيا عناية بأمور التعليم والمدارس المسلمون الساكنون في الولايات الداخلية الروسية

وعدد المتعلمات من البنات في الكتاتيب يساوي ثلث المتعلمين من الذكور ومما يحسن ذكره هنا ان جماعة من الفتيات المسلمات يتعلمن في مدارس البنات التجهيزية الرسمية . وكذلك تتعلم اليوم في القسم الطبي من « جامعة » بطرسبورغ أربع عشرة فتاة مسلمة . وقد كانت أكملت دروس الطب فيها فتاتان مسلمتان وهما تمارسان اليوم صناعة الطب . وكان دخول السيدة « رضية » احدى تينك الطبيبتين في الجامعة بسعي المرحوم شاكر باشا السفير السابق للدولة العثمانية في بطرسبورغ

وليس لدي الآن تفصيل بشأن الكتاتيب والمدارس الاسلامية في آسيا الروسية ولكني أعلم ان المدارس الدينية كثيرة ملأى بطلاب العلوم في مدينة بخارى وخوقند وسمرقند وغيرها من حواضر البلاد التركستانية

وإني لأتمالك ان أذكر هنا بكل أسف ان تلك المدارس لا تبرح تسود فيها الفوضى والخلل في طرق التعليم . ومن أجل ذلك لا تأتي بفوائد يقتضيها هذا الزمان ونطاق برجاماتها أضيق من أفكار الاساتذة القائمين فيها بالتعليم والتدريس وليست بيننا الى الآن مدارس للمعلمين والمعلمات ولكن فكرة انشاء المدارس

من هذا القبيل قد حدثت في العهد الاخير

انتشرت بين مسلمي الروس فكرة الارتقاء والتمدن منذ ربع قرن انتشاراً يذكر . ومن ثمرات هذه الفكرة أنهم جعلوا في العهد الاخير يصلحون كتاتيبهم ومدارسهم وينشرون المؤلفات المفيدة في العلوم العصرية والاديبات التركية وطفقوا ينشئون المعاهد العلمية على الطراز الحديث ويرسلون التلاميذ الى المدارس الروسية والاوروبية والى الاستانة ومصر لتلقي العلوم الحديثة العصرية والعلوم العربية والدينية .

ويناهز عدد الكتب المنتشرة بين مسلمي روسيا في العلوم العصرية والادبية نحو خمس مئة كتاب

وعدد المطابع الاسلامية الموجودة في روسيا كما يأتي:

ثلاث في بطرسبورغ وثلاث في قزان واثنتان في تفليس واثنتان في باكو وواحدة في باغجه سراي . وفي قزان ثلاث مطابع روسية ذات حروف عربية فيكون المجموع ثلاث عشرة مطبعة . وأما الصحف المنتشرة الاسلامية في البلاد الروسية فهي

صحيفتان في بطرسبورغ واربع في قزان وثلاث في أورنبورغ وثلاث في باكو وواحدة في طاشقند قاعدة تركستان اليوم وواحدة في تفليس وواحدة في باغجه سراي واحدة من هذه الصحف تصدر باللغة العربية والبقية باللغة التركية . واحدى الصحف التركية تكتب بلهجة تقرب من لهجة الترك العثمانيين والبقية تكتب الآن بلغات تركية مختلفة باختلاف الاقاليم . والرجاء أن تتحد لغات هذه الصحف أو تتقارب كل التقارب في مستقبل قريب أو بعيد . وهذا الاتحاد اللغوي غاية ما يرمي اليه المصلحون والمنورون منا وثلاث صحف من تلك الصحف علمية أدبية والبقية سياسية أيضا . وأما من جهة الخطة فثلاث عشرة صحيفة منها وطنية معتدلة واثنتان زمبان الى غاية «اشتراكية ديمقراطية»

وفي روسيا اثنا عشرة جمعية خيرية اسلامية غرضها اسعاف المعوزين والاخذ بأيدي البائسين والمساكين ولها قوانين مصدق عليها من الحكومة

ويتجاوز عدد الكتاتيب التي أصلح أمرها ألف كتاب تعلم فيها القراءة التركية والكتابة والقرآن والعقائد الدينية ومبادي الحساب والجغرافية والتاريخ الاسلامي

وشيء من علم حفظ الصحة

وأما المدارس الدينية فقد أصلحت منها مدرسة في قزان وأخرى في أورنبورغ وثالثة في أوفا . وفي تلك المدارس تدرس اليوم العلوم الرياضية والطبيعية وتقويم البلدان والتاريخ . دع عنك العلوم العربية والدينية بأنواعها

ولقد نشأ لمسلمي روسيا افراد جادوا بأموالهم وأنفس املاكهم في سبيل ترقية المعارف واعلاء قدر الامة والملة . وأخص بالذكر من بينهم المرحوم الحاج نعمة الله قرامشف السيبيري الذي بذل أموالا طائلة في سبيل انشاء مئة كتاب ومئة مسجد وأنفق مبلغا عظيما لتأسيس مكتبة عامة أودعها أنفس الكتب وأندر الآثار . أكرم الله مثواه وأحله مقاما كريما . وأنفق التاجر القزاني المرحوم أحمد الحسيني في انشاء معاهد العلم وترقية المعارف ثلثمائة ألف روبل . وأنشأ شقيقه عبد الغني الحسيني مئتي كتاب على نسق حديث وقد نشر بهمته الشهاء فكرة اصلاح الكتاتيب وكذلك الاصول الحديثة المعروفة بالاصول الصوتية التدريجية الى تخوم الصين وذلك بانشاء الكتاتيب في تلك الديار النائية كما أنشأها في الولايات الروسية المتوسطة جزاهم الله عنا وعن العلم والفقراء جزاء حسنا

ومن تقضي علينا الانسانية ان نذكر اسمه مقرونا بالاجلال والاحترام الحاج زين العابدين تاغيف الباكوي لان خدمة هذا المثري الكريم في سبيل نشر العلم واسعاد الفقراء أكثر وأجزل

أنشأ هذا الرجل في داغستان مئة مسجد ومئة كتاب . وأنشأ في ضواحي مدينة باكو حقلا أنموذجيا . وأنشأ للدفاع عن الحقوق الوطنية جرائد متعددة باللغة الروسية والتركية

وبذل ملايين من الروبلات لتعليم أناس كثيرين في الجامعات الروسية والاوروبية . وما معظم الاطباء والمحامين والمهندسين المسلمين الذين نفتخر بهم الآن من آثار همة هذا الرجل الكريم . ولم ينس هذا الرجل العظيم المسلمات أيضا فقد أنشأ في مدينة باكو مدرسة شاهقة للبنات أنفق على بنائها فقط عشرين ألف جنيه . ووقف عليها وقفا يأتي بايراد قدره ثلاثون ألف جنيه سنويا ولا يعد أن

تصبح هذه المدرسة ذات يوم « المدرسة الجامعة » للاناث

ولم يجتزئ هذا الرجل بمساعدة من في روسيا فقط بل مد يد المعونة الى ايران أيضاً . وقد طبعت هناك كتب جعلت نفقة هذا الرجل الكريم . وبقدر ما ساعد به المنكوبين والبائسين في البلاد الفارسية بمليون روبل وزيادة

أيها السادة : شاركوني في الدعاء لهذا الرجل الناصح للانسانية والخادم للفضيلة . أطال الله بقاءه وحفظه من كوارث الزمان .

وأما الاغنياء الذين أنشؤا كتابا أو كتابين ومدرسة أو مدرستين فهم كثيرون جداً يتعذر علي الآن احصاؤهم وما الخطوة التي خطوناها الى الامام في ميدان التقدم الا بفضل هذه الكتاتيب والمدارس التي أسست ووصلت بهمة أمثال من ذكرنا أسماءهم من أولي الهمم العالية الى ماوصلت .

* * *

وهاقد آن لنا أن نوجه وجه الكلام الى الامور التجارية والاقتصادية .

ان لدى المسلمين الساكنين في آسيا الوسطى وأوربا الروسية قوة تذكر في هذا الشأن . ولكنه لا بد من أعدادها وتنميتها بنشر العلوم والمعارف بينهم . لان الاقوام الذين يتفق للمسلمين ان يباروهم في ساحة الاعمال التجارية أشداء أقوياء فيما يمارسون . فمسلمي روسيا — عدا من يسكنون منهم الولايات الداخلية — من الاراضي ما يكفيهم للاستغلال . وقد تولدت بينهم فكرة الحرص عليها وعدم تمكين الآخرين منها تولدا يبشر بحسن المغبة ان شاء الله . وأهل تركستان بارعون جدا في أمور الفلاحة والزراعة . لا يقدر على نزع الارض الغالة من أيديهم — من الوجهة الاقتصادية — لا الروس ولا مهاجرو الالمان .

وهم يكدحون في أمر الزراعة كدحاً لا يعرفون فيه الملل والسآمة . فهم يشبهون المصريين من هذه الوجهة كل الشبه ولكن أراضيهم الغالة أكثر وأفسح من أراضي القطر المصري . ونصف القطن الذي تحتاج اليها معامل المنسوجات الروسية يرد من الخارج وأما النصف الآخر فهو ثمرة كدح أهل تركستان وحدهم . فزراع القطن في تركستان يجلبون من روسيا الاوروبية الى بلادهم مبالغ طائلة .

وأما المسلمون القاطنون في مدينة قزان وما يتاخمها من البلدان فلهم كثير من معامل الصابون والجلد . ومن معامل الجوخ ما فيه ثلاثة آلاف عامل . ومن جملتها معامل « آقچورين » المصري المسلم الشهير . وتبيع هذه المعامل سنويا الى الجيش الروسي من الجوخ ما يناهز مليون متر . والمصري الشهير الحاج زين العابدين تاغيف الذي تقدم ذكره معمل للمنسوجات القطنية فيه أربعة آلاف عامل . وأكثرهم من المسلمين . وكذلك المهندسون ورؤساء العمال فيها . وأما مديرها فكان من قبل انكليزيا ولم يبق اليوم حاجة الى الانكليزي اذ جعل صاحبها يديرها بنفسه

وهناك بيوت تجارية اسلامية كبيرة تشتغل باستخراج النفط والبترول يبلغ ما يتعامل به أحدهم عشرة ملايين روبل

وأكثر السفن التي تسير في بحر قزوين ملك للمسلمين

والفواكه الطيبة التي تتفكه بها روسيا كافة تؤتى أكلها في بساتين المسلمين في القريم.

لا يظنن ظان ان ذلك ارتقاء عظيم وتقدم عميم . لان كل ما ذكرناه عن مسلمي روسيا هو شيء طفيف تافه جدا بالنسبة الى الامم الراقية الحية التي تخطو في مهيع التقدم والارتقاء بخطا الغاريت وتهتدي الى أسباب النجاح والفلاح اهتداء الخريت، وتمضي في سبيل الخير والصلاح مضاء الاصليت

ولكنه لا ينبغي لنا ان لا نيأس ونقاعد عن النظر فيما يرقي شؤونا ويصلح حالنا اذ كل من سار على الدرب وصل

ولا شك أن مسلمي روسيا يستفيدون ويفيدون من الانقلاب الذي حدث في روسيا ومن دستورها الذي هو ثمرة ذلك الانقلاب استفادة كبيرة . وقد تنبهت أفكار الأمة في السنين الثلاث الأخيرة تنبها عظيما واتسع نطاق الآمال اتساعا جسيما . حقا ان انقلاب روسيا أثر تأثيرا بذكر في مسلمي روسيا وأنامهم بفوائد جمة . ولست الآن بمكتف بتعداد تلك الفوائد جملة بل أحب أن أذكرها أهما وأعودها عليهم بزيادة

أيها السادة : ان مسلمي روسيا أنشأوا لأنفسهم حزبا سياسيا دستوريا ديمقراطيا باسم « اتفاق مسلمي روسيا » فاجتمع مندوبو المسلمين في الولايات المختلفة في

أغسطس سنة ١٩٠٥ في مدينة « نيجني نوفغورد » غير أن الوالي لم يسمح بعقد الاجتماع رسميا . ولم يكن الوقت ليتسع لتحصيل الاذن من العاصمة . فعقد المندوبون اجتماعهم على ظهر باخرة استأجروها فتنزه عليها في نهر « فولغا » . فقررت الآراء في ذلك الاجتماع انشاء (حزب اتفاق المسلمين) وانشاء فروع له في الولايات تذب عن حقوق المسلمين السياسية والاقتصادية والادبية .

وقد أنشئت هذا الحزب الذي يقوى يوما فيوما فروع في بعض الولايات بالفعل ورفعت قوانينها الى الحكومة فتصادق عليها . وكذلك عقد المسلمون سنة ١٩٠٦ اجتماعا غير رسمي في بطرسبورغ وآخر رسميا في « نيجني نوفغورد » وبلغ عدد الحاضرين في الاجتماع الثالث سبعمئة رجل وامتدت مدة المفاوضة والمناقشة خمسة أيام

وبفضل هذه الاجتماعات انتشرت الافكار السياسية بين المسلمين انتشارا زائدا فقضى لهم أن ينتخبوا منهم أربعة وعشرين نائبا للدوما الأولى و٣٦ نائبا للدوما الثانية ولا يسعنا هنا الا الاعتراف بأن هذا النجاح الباهر في الانتخاب في تينك المرتين لم يحصل بهمتنا فقط بل كان فيه للقوانين العادلة ومعاملة أحرار الروس لنا معاملة شريفة تأثير كبير لا ينكر

نعم ان أحزاب التقهقر من الروس ينظرون الى « اتفاق المسلمين » نظر المتحفظ المتشيط ولكنه غير خارج عن دائرة القانون حتى تكرهه الحكومة وليس حزبا يسعى لايقاع التفرقة بين الرعايا الروسيين حتى ينفر منه الاحرار من الروس . ومما يحسن ذكره هنا أن المسلمين يعيشون مع الروس على غاية من الوفاق والوئام . وأمة الروس كثيرة الجنوح الى الائتلاف والسلام . وهم لا ينظرون الى المسلمين نظر المتحفز المتوجس بل يعاملونهم معاملة القرين لقرينه وأرباب الجمعيات العلمية والادبية والاندية والمدارس كلها مفتحة في وجوه المسلمين اذا هم رغبوا في الالتحاق بأحدها

نعم قد حدث في الايام الغابرة بتأثير الكنيسة وجماعة المبشرين بعض الحوادث المؤلمة ولكنها قد زالت أسبابها بعد أن أطلت الحرية كل الزوال ونؤمل

أن تحسن أحوالنا في المستقبل أكثر مما تحسنت . وأيما كثيرين ممن أكرهوا زمن الاستبداد على التنصر قد عادوا الى الاسلام وكذلك انتحل الاسلام اناس من الروس الاصليين رجالا ونساء . والفضل في ذلك كله للحرية التي ترقى بها الامم وتكمل الانسانية

﴿ مسألة التعليم العام ﴾

اذا أرادت معظم أمم الارض أن تدخل في دور التمدن والرقي يكفيها النظر في مستقبلها فقط وعلى العكس من ذلك الامة الاسلامية فانها مطالبة بأن تمد بنظرها الى الماضي أيضا فليس في الامم الأخرى في غابر أزمانها ما يستدعي الالتفات نحوه . أما الامة الاسلامية فان أعوامها السالفة كلها عبر وحسنات رقي ونجاح . ولما كانت الامة الاسلامية الحاضرة تمتاز على غيرها في هذا المبدأ فلا بأس من أن تعيد نظرة الى الوراء خصوصا في مسألة التعليم وانشاء المدارس

ان مصر هذه التي تعد منبعا للمعارف ومهدا للمدنية وان كانت في سالف أيامها أي منذ ٤٠ قرنا اشتهرت بارتقائها في العلوم الا أن هذه النعمة ما فتئت اذ ذاك غير كونها آلة لتوسيع نفوذ طائفة الكهنة ووسيلة لتقوية أمرائهم

ثم انتقلت القراءة والكتابة الى ديار اليونان فظهرت فيها عدة مجامع علمية كمدارس سقراط وافلاطون وارسطاطاليس الا أن هذه المجامع لم تكن على شكل مدارسنا اليوم ، بل كانت أشبه بمجالس المذاكرة خاصة يختلف اليها المولعون بالبحث والمناظرة وأعني بذلك أنها لم تكن عامة للتدريس يهرع اليها كل طالب . انتقلت المدنية اليونانية بعد ذلك الى الرومانيين ثم ظهرت النصرانية بظهور الدولة القسطنطينية فتقدمت معها قوانين ادارة الملك وعلم الحقوق تقدما عظيما ولم تشبه فيهم أيضا فكرة تعميم التعليم فبقيت هذه المسألة غامضة غريبة من الافكار الى أن قيض الله تعالى لعالم الانسانية الامة الاسلامية التي اهتدت الى هذه الفكرة لاول وهلة فأخذت مسألة التعليم العام بسبب هدايتها حظها من التوسع والانتشار .

ومنشأ ذلك الاسلام نفسه لانه كما أتى بالتوحيد الذي يدعو الى وجوب تعليم العالم . فقد كان من مقتضى ذلك ان المسلمين بنوا عند كل مسجد تقام فيه الشعائر

الاسلامية كتباً او مدرسة للتعليم العام مجاناً . فاصبح التعليم العام المجاني من جملة الخيرات التي انتجتها المدنية الاسلامية في العالم الانساني . ثم لم تلبث هذه النعمة العظمى في ايدي المسلمين زمناً طويلاً حتى انتقلت منهم الى الامم الغربية وهناك نالت ما نالته من الحفاوة والاجلال فتقدمت تقدماً باهراً وانتشرت انتشاراً عظيماً

فوا أسفاه على هذه الخسارة التي لحقت بنا ووا أسفاه على ذلك الاهمال الذي أفضى بنا الى ضياع هذه النعمة من أيدينا بعد أن ورثناها عن آبائنا . لقد قصرنا في حفظها تقصيراً لا مزيد عليه . فالمعارف التي تركها لنا الاسلاف بقيت طفلة في مهدها ولم نعمل على انمائها بل المدارس والمعاهد العلمية التي هي تذكار المتقدمين لم نسع في ترقيتها فبدل أن نعمرها ونرفع أعلام مجدها السابق سعينا في تخريبها أو هدمها .

ان تلك المعاهد العلمية التي نشأ منها أمثال ابن سينا والفارابي وابن رشد والغزالي ومحيي الدين بن العربي أصبحت منذ عدة قرون دوراً للعجزة الضعفاء ومسكناً للعطلين

ولم يكن السبب في حالتنا هذه الا التكاسل والاهمال الذي أسبل ستار الغفلة علينا وحال دون تقدمنا الى حالة الامم الاخرى

أما الآن فقد أقبل — ولله الحمد والثناء — على الأمة الاسلامية دور التيقظ فأخذت الرغبة في التعليم تتولد في كل جهة من الممالك الاسلامية فأصبحنا نسمع صدى بعض الافراد والحكومات للتفكير في شؤون التعليم والمدارس ولكن ذلك من سوء الحظ لم يبلغ الخطة المطلوبة نحن معشر المسلمين منذ ثمانية قرون قد تركنا لأوروبا غنائم كثيرة وخزائن من المعارف ولم نطالبهم أثناء هذه المدة بردها الينا . ولكن قد حان الآن وقت الاعادة فعلينا أن نستردها منهم استرداداً بحسب ما توفر لديهم حتى الآن من انمائها . ولا يقال منا أن الشرق غريم للغرب اذ لا يقصد منه الا الذهب الذي لا يساوي شيئاً اذا قيس بالعلوم والمعارف التي هي حقوق الشرق على الغرب فغرامة الغرب لنا هي أعظم بكثير من غرامتنا له فعلى الدائن أن يطالب المدين

وليست هذه الكلمات من بنات أفكاري الخاصة كلا بل هي قولها قولب المتقن الالماني ودرايو العالم الامريكي وما سأعرضه أيضاً مما يثبته تاريخ التعليم

لا ينكر اليوم أحد من العقلاء المستنيرين ضرورة التعليم العام لنوع البشري وخصوصاً للامة الاسلامية فان ديننا القويم يقضي علينا بتصديق هذا الأمر وقبوله وابرامه ووضعه موضع الاجراء . وفي نظري أن هذا الامر ليس من قبيل المسائل حتى يناقش فيه بل هو أمر ديني قطعي فما علينا الا أن نتناقش في كيفية اجرائه وايجاد الطريق القويمة الموصلة الى هذا المقصد الجليل فقط .

ولقد أثبتت تجارب أعظم الامم المتمدنة في هذا العصر أنه لا يمكن تعميم التعليم ونشره الا بوجود كتاب واحد لكل ستين أسرة من الامة

وأما طريقة اجراء العمل فتكون بحسب الميزان الآتي .

لو فرضت مملكة من الممالك يسكنها نحو عشرة ملايين نسمة فمقدار ما يلزمها من الكتاتيب هكذا . يتعين أن تقسم هذه العشرة الملايين على خمسة (أقطار) ثم تقسم الحاصل وهو مليونان على ستين فيبلغ عدد الكتاتيب على هذا الحساب نحو ثلاثة وثلاثين ألفا وهذا هو المقدار المعين الكافي لعشرة ملايين نفس

فلو بلغت مصاريف كل كتاب مع نفقات الأدوات ومرتبات المعلمين نحو ٤٠ جنيها يكون المجموع ١٣٢٠٠٠ر جنيه . فاذا أضفنا اليه مبلغ ٢٠٠٠٠ر جنيه وهو ما يلزم للانفاق على ارادة تلك الكتاتيب وغيرها من مدارس المعلمين نحتاج في ايجاد التعليم العام الابتدائي الى ميزانية قدرها ١٥٠٠٠٠ر جنيه

وهذا لا شك مبلغ جسيم الا أنه لا ينبغي أن لا يروعنا بجسامته . لان الفائدة التي نستفيدها من هذا المشروع مادية كانت أو معنوية أعظم وأرقى بكثير من ذلك المبلغ . فالنسبة مبلغ ١٥٠٠٠٠ر جنيه لعشرة ملايين نسمة الا نسبة جزئية جدا تقضي بدفع ١٥ قرشا على كل نفر في السنة و٧٥ قرشا عن كل أسرة . وربما يقال هنا ان طاقة العيال لا يستطيعون دفع ذلك . فنقول كلا لاننا لو فرضنا أن عاملا يشتغل في السنة ٣٠٠ يوم فيكون حاصل قسمة ٧٥ قرشا عليها مليمين ونصفا فقط وهو ما يطالب باقتصاده من مكسبه اليومي الذي لو بلغ خمسة قروش مثلا

لا يكلفه اخراج ذلك منه الا أن يتناول عن فنجان من القهوة يتناوله يوميا وعن سيجارتين على الاكثر

فبقي علينا أن نبحث في النفقة اللازمة لبنائها فاذا فرضنا أن نفقة كل كتاب على حدته هو ١٥٠ جنيها تبلغ نفقات ٣٣ ألف كتاب ٥ ملايين من الجنيهات. وحينئذ تقع في مشكلة عظمى أيضا وهي خلو اليد من النقود . فما الحيلة ؟ الجواب سهل . وهو ان الأمة مادامت حية فالنقود توجد ألبتة أولا بد من وجودها .

النقود التي وجدت عند تأسيس الاهرام المجيدة لم لا توجد لبناء مدارس؟ واذا كان يجوز للامم الحية اقتراض المال لانشاء السكك الحديدية والبرانخ والترع فلماذا لا يجوز اقتراضها لانشاء المدارس ؟

هذا وهناك طريقة أخرى لسهولة اجراء هذا المشروع وهي تجزئة مدة الاكتتاب الى عشر سنين لانه من البديهي أن مثل هذه المشروعات المهمة لا تتم دفعة واحدة كما انها لا تتم الا با كتساب ثقة الامة ورغبتها في المشروع .

﴿ الحاجة الى مؤتمر اسلامي عام ﴾

نرى المسلمين اليوم تنبهوا بعض التنبه في الاقطار الاسلامية كافة . وهب فضلاؤهم لانشاء الصحف والجرائد التي لها أثر عظيم في تنبيه الافكار والارشاد الى الخير والصلاح ونسمع ان مسلمي بعض البلاد ينشئون جمعيات خيرية وعلمية. هذه علائم خير تقربها عين كل ناصح للانسانية ولكن لا يجوز لنا ألبتة ان نجتزئ بهذه العلائم المسنة ثم نخلد الى أرض الدعة والكسل . فالمستقبل الحسن لمن يدأب ويعمل . لا جرم ان المرء يرى اذا جاب طرفه في الاقطار الاسلامية من مدينة قزان الشمالية الى مصر الجنوبية ومن مراكش الغربية الى جاوا الشرقية علائم الانحطاط أكثر من علائم الارتقاء

فقد عادت معظم المدارس مثابة للعاجزين والبطالين . وذرت الصناعات الوطنية أو أشرفت على الدثور . أصبح حظنا قليلا من تجارة العالم وبدنا ضئيلة في الصرف والشؤون المالية وضيعنا عدما في التجارة البحرية . وليس لهذه الأمة التي يبلغ عددها على ثلاثمائة مليون شركة مؤلفة من ثلاثين سفينة كما أنها

لا تملك مصرفا رأس ماله خمسة ملايين جنيه مثلا .

ليس في أيدينا ما نفيض به غير الاراضي الخصبة التي ورثناها عن آبائنا . تأتي لنا هذه الأراضي بالقمح والفلفل والبن والقطن والقز والقواكه وغيرها . ولكننا نجهل أساليب بيع هذه الغلات بيعا رابحا . ويذهب جزء عظيم من ربح تلك الحاصلات من أيدينا الى أيدي التجار الاجانب وجزء عظيم الى شركات تسيير السفن الاجنبية

ولا تكاد تجد تاجرا مسلما في جميع البلدان الاميركية والاوروبية الا في النادر واذا رأيت هناك تاجرا شرقيا فهو اما أرمني أو روحي أو يوذي هندي أو صيني

اذا صرفنا النظر عن التجارة الخارجية فما بالنا لا نعمل في بلادنا أيضا . فنحن أولاء نرى معظم التجارات المهمة في البلاد العثمانية والايرانية ومصر والمغرب الاقصى والهند بأيدي الغرباء الذين يقاطرون الى البلاد الاسلامية من أقطار العالم المختلفة

نحن لا ننفك نقول : أمطرت السماء فشرقنا وأنبتت الارض فأكلنا ولكن ينبغي لنا أن نعرف اننا اذا عشنا على العمل بهذه القضية في الايام الغابرة يستحيل أن نبقى بها فيما نستقبله من الايام

اذا فقدت امة من الامم استقلالها ووقعت تحت حكم الاجنبي فانها تخسر خسرانا مبينا . بيد أن هذا الخسران لا يقام له وزن — في مذهبي — في جانب الخسارة التي تخسرها الامة التي تقاعدت وتواكلت ثم سقطت من مكانتها في ميدان العمل والاقتصاد

وما هو السبب في هذه الحالة الاليمة التي وقعت فيها الامة الاسلامية ؟ ليس لنا ان نقول : ان السبب هو الجهل : ثم نسكت ؟ اذ يرد عليه سؤال آخر وهو : وما هو سبب الجهل ؟

اذا أغضي عن ترقي الامم الافرنجية ألا يجب على كل مسلم ناصح لأمته أن يسأل : كيف ارتقى الارمن والروم والكرج والبلغار واليهود والهندوس الذين كانوا قبل اليوم بنصف قرن يعيشون بيننا ويشاركوننا في معظم عاداتنا وآدابنا ونحن بيننا ورائهم ننظر اليهم بعين الاعجاب ؟

حالتنا أيها السادة مما يرثى له ولكن لا يجوز لنا البتة أن نكتمها لان ذلك الكتمان هو عين الخطأ بل هو جناية عظيمة على نفوسنا

بل يحق لنا ان نجاهر بها في كل ناد ونسعى لتشخيص الداء حتى نصف له الدواء. هل من الرأي أن يكتم الانسان مرضه اذا لم يكن عدو نفسه، وليست مغبة من يكتم مرضه الا الهلاك .

اذا كنتم تنتظرون الجواب عن الاسئلة السابقة من الخطيب فهو يبادر الى القول بأنه أعجز من ان يجيب على أمثال هذه الاسئلة العظيمة . لانه يبحث عن الجواب ولا يجده

أيها السادة ان استعداد الأمة العربية للمدنية قد ثبت عندنا بتاريخها المتلألئ اللامع

ويرشدنا الى استعداد الأمة التركية للمدنية ما تركه لنا علماؤهم من المؤلفات الفائقة . وأطلال مرصد سمرقند تشهد بشغف هذه الأمة بالعلم والعرفان ثم ألا ترى الفنلنديين والمجر يباهون الاقوام المتمدنة ويجاوزونهم في كل شؤونهم . ونحن نعرف ان هاتين الامتين والترك يتفرعون من أصل واحد *)

القصد أيها السادة من سرد جميع هذه الادلة التاريخية اثبات أنه ليس سبب انحطاط العرب والترك اليوم هو نقص في فطرتهم وضعف في استعدادهم . وأما الدين الاسلامي الذي تدين به فهو دين يخاطب العقل ويحث على العمل والحروب وينوط نجاح الانسان بسعيه . ولكن سيرتنا تخالف هذه الاصول الكريمة الدينية مخالفة ظاهرة . وما السبب في هذه المخالفة أيضا ؟

اني أرى أيها السادة أن الجواب على تلك الاسئلة المهمة وكشف النقاب عن أسباب انحطاط الامة الاسلامية لا يتيسر تيسراً كاملا لفرد أو فردين بل لامندوحة للبحث في ذلك عن عقد مؤتمر اسلامي عام يجتمع فيه علماؤنا وفضلاؤنا ثم يتفاوضون في الشؤون الاسلامية .

---

*) قال الخطيب انه سقط من الخطبة ذكر الفرس والهنود وأهل الافغان وجاوه والمغرب والمراد ان فطرتهم قابلة للعلم والمدنية كالعرب والترك وسائر الاجناس

لا يفهمن أحد اني أدعي باقتراح عقد مؤتمر على هذه الصورة الى غاية « بانسلاميزم » أي الجامعة الاسلامية التي يفشاهم منها الأوروبيون . وانما غرضي الوحيد من عقد هذا المؤتمر هو البحث عن أسباب انحطاط الامة الاسلامية وفتح أبواب النجاح في الأمور الاقتصادية والاجتماعية واختيار السبل القويمة التي تصل بنا الى أخذ نصيبنا من المدنية الغربية الحاضرة .

ولا ننكر انه كان لاكتشاف أمير كا وفي الصناعات والميكانيكات في الغرب تأثير يذكر في افتقار الشعوب الاسلامية وفقدان وجوه الكسب . بيد أن العامل القوي في انحطاطنا — على ما أظن — هو الجمود على بعض العادات والقواعد الواهية والاوهام والخرافات التي ورثناها عن آبائنا ونسربت الينا من الأمم الاخرى بحكم الزمان . ومن أجل ذلك أبدي وأعيد ان حاجتنا شديدة الى المؤتمر العام للكشف المحجب عن الحقائق

فاسمعوا الي أيها السادة والامر على ما ذكر ان أقترح عليكم عقد مؤتمر اسلامي عام لا يتطرق قط الى البحث في الامور السياسية وتكون باب داره مفتوحة لكل أحد ممن يحبون استماع المذاكرات وتنشر خلاصات المناقشات في الصحف المنتشرة وأرى أن يعقد المؤتمر في عيد الفطر من السنة القادمة أو بعده .

ويحسن ان ينعقد هذا المؤتمر في الاستانة العلية أو في مصر المركز الثاني . ولا أرى سببا يحملنا على عقد هذا المؤتمر الذي يتفاوض فيه بالمسائل المدنية (*) والعلمية في جنيف مثلا

أيها السادة : اذا وافقتموني على هذا الاقتراح فلابد من التمهيد لهذا الامر الخطير منذ الآن . فيتحتم علينا من اليوم تأليف لجنة من العلماء والمتنورين تشتغل بهذا التمهيد مثلا : تخبر هذه اللجنة الحكومة العلية بجلية الامر وتضع للمؤتمر برنامجا اجماليا وتعين زمن انعقاد زمن المؤتمر وتتولى مراسلة من يرجعون اليها من سائر الاقطار .

---

*) لعل الاصل المراد « الدينية » فهي التي لا يليق تخصيص مثل جنيف بعقد مؤتمرها

ولا ريب ان هذه اللجنة تفتقر إلى قدر من النقود . ولكني لا أظن مطلقا أن المانع يكون من الوجهة المالية

ومن منا يمتنع أيها السادة أن يتفضل على هذه اللجنة بما في استطاعته من المال ؟

هل يجيب المسلمون داعي هـذا المؤتمر ؟ هذا سؤال أنا أجيب عن جزء منه قائلا اني على ثقة من أن خمسة عشر أو عشرين مندوبا من روسيا ومن ايران يجيبون الطلب .

أيها السادة : هذا ما أردت عرضه على حضراتكم في هذا الاجتماع . وقد استوقفتكم زمنا طويلا . فأسألكم أن تصفحوا عن هذا العاجز صفحا جميلا . اه

بحث في المؤتمر الاسلامي

﴿ تعارف المسلمين والبحث عن أسباب ضعفهم وطريق علاجه وتاريخ الدعوة اليه ﴾

أول صوت سمعناه في هـذا العصر يدعو المسلمين الى التعارف والاتحاد والتعاون في الرأي والسعي على تدارك ما حل بالمسلمين من الرزايا الاجتماعية التي هبطت بهم من ذلك الأوج الذي كانوا فيه الى الحضيض الذي صاروا اليه هو صوت أحد أهل الملل من الكتابيين والوثنيين في المدنية هو صوت الحكيمين الغيورين المجاهدين في سبيل الله الجهاد الذي لا يفضله جهاد في هذا العصر — السيد جمال الدين والشيخ محمد عبده رحمهما الله تعالى وجزاهما عن نفسهما وعن الامة والملة خير الجزاء .

للسيد جمال الدين مقالات كثيرة في تنبيه المسلمين من رقدتهم وإعلامهم بأسباب تمزق قوتهم ، ودعوتهم الى الوحدة ، ودلالتهم على وسائل القوة ، وله من الدروس والخطب والمحاورات في ذلك ما هو مشهور بين العارفين ، وان لم يقيد بالتدوين ، ولما اجتمع الشيخان في باريس وأصدرا جريدة العروة الوثقى كان قطب مدارها دعوة علماء المسلمين وعقلائهم الى النظر في أحوال المسلمين العامة وارشادهم الى